

وجوه من الشرق

رابندرانات طاغور

الرحالة والمواطن العالمي

بقلم ميشال حايبك

« إنسان أنا وكل ما هو انساني ليس بترميمي عني »
(تيرانس)

« عندما امرت قل لمملكة الارض الجبيلة انفي
احييتها أكثر مما اجترأت على ان ابوح . . . »
(جورج برنانوس)

« كلا لن تستطيع ان تجعل البرعم يتفتح
هزه واضطاً عليه ، فلن تستطيع ان تفتحه !
قد تحطه يداك وقد تحشم بتلانه وتثرها بين النبار
ولكن اللون لن يجري به ولن يثي المير !
اواه ! انك لن تستطيع ان نصيره زهرة . . .
اما الذي يفتح الزهرة فيعدل بباطة !
يلقي عليها نظرة فيسفي النسخ في اعصاجا مترنماً ،
وعلى انفاسه تفتح جناحها وتنازع بين اكف النسيم ؛
ينض اللون خافتاً كأنه شهوة من فؤاد
ويسري عبرها كأنه يوح برهوى . . .
ان الذي يفتح الزهرة ، يسل بكل بباطة ! » (١)

اول ما قرأت لطاغور كانت هذه الايات . ومنذ تلك الآونة بدأت
ابحث عنه كالني افتش عن وجه بعيد عرفت ملامحه من زمان ونسيتها مع
الزمان . واية غرابية في ان يتحس ابن الشرق بفتح من غير شرقه فيتبع

السير حتى يصل الى ارمرة التي تملأ بمطورتنا الآفاق؟ وطاغور هو تلك ارمرة التي اكتشفتها ، بلبل حواشيا ندى الشرق ، واستناقت صباح يوم تحت جذع شجرة في الهند مثقلة بالثمار ، والارض حولها تخطر بابهي الحلى كأنها في عرس ، وفي الجو اغاني عيد ونشوة طرب ، والحياة صيبة يجن من مرها الرجود ، كأنها فينوس التي وصفها « لوكس » في مطلع نشيده « الاشيا. »¹⁾ مرفرفة الجناح فوق قلوب الخلائق ، فاذا في كل قلب وكل مهجة رغبات تتدافع وثورات فنية تتغنى ببطرة صاحبة لآجة .

وطالعت من طاغور ، وشبح الحرب يتصد على ابواب البشر ويلقي على صدر كل حي حملًا من الاسب ، فعاشت آمالي وايقنت من ان زيغان العالم ليس غير نوع من البحث عن الحقيقة ، وان ظلماته نوع من العطش المضئك الى النور ، فصدمت اذ ذاك كلمة قالها احد كتاب فرنسة ، وقد ذهب ضحية الحرب ، حينما هتف : « عندما يثبي الاعمى نحو النور ، يكون قد وجد النور »²⁾ .
لا شك في ان الذين قرأوا طاغور احسوا بذات الشعور وذات النبطة وذات الامل : شي. من الهدوء يحل في قرارة النفس ، والوان ورود مزهرة امام العيون المبتلة ، وصحر بعد عزيف شتاءات ، وتقشيع زرقة في كبد آفاق مزرجة بالدم الاسود .

وهذه الثقة بمخلص العالم النباني رافقت طاغور كل حياته - لقد ورتت بحجة الله للارض ، وورتت بالطبيعة ، وورتت بطبيعة الانسان ولم ييأس ، بينسا العالم مرجل تغلي باليأس لتطعمه ابناءها ، من ان القيم لن تهلك ولو هلك الناس . حربان عليتان ، قدمت كل امة في الارض لقمه لسعيهما ، ما اضعمتا تقته ، فما انهار بل وما وهى ركن الآمال في نفسه .

وما ذاك الا لان نفس طاغور هادئة متفائلة دائماً ترتب الخير كل حين ولو طال يحينه ، وتعرف ذاتها انها ترنيسة في فهم الطبيعة ، وتعرف الطبيعة ترنيسة في فهم الله ؛ ولذلك فانها تعرف ان النظام ازلي واذا افسدته الارادات الطالبة السوء ، فالى حين وسيمود مستقراً الى الابد .

1) Lucrèce ; De Natura Rerum : 1

2) Antoine de Saint - Exupéry : Lettre à un Otage.

اخلاجه

شاهدت من لمس بكفه كف طاغور وكافني بجرارة عن تلك الحرارة والرعشة التي سرت في جسده من لمس ذلك الرجل العظيم .

وُلد للقيادة في مظهر يوحى الاحترام والثقة والنومة في الوقت الواحد .
قامته الكبيرة الجميلة ، صوته الحلو ، بسمة العذبة ، ضحكته الصريحة العريضة ،
هيته المهيبة كانت تترك على مجاه مسحة من القداسة يخشع دونها الناظرون اليه .
لم يكن طاغور من اولئك الشعراء الذين تقيس عليهم الايام فتريد في مرض روحهم غللاً في الإجسام ، اما هو فقد كان لا علة فيه ، فاحس طول حياته كما قيل بالم في الرأس بالرغم من الجهود الجبارة التي بذلها . وهذه الصحة العقلية والجسدية وضعها طاغور في خدمة مثله الاعلى : خدمة الانسان في العالم .
فلا يستريح نهاره مطلقاً بل ينتقل من عمل الى آخر يجلس وغيره واندفاع ، يعلم تلاميذ ، ويكتب قصائد وروايات ، ويوقع تلاحين ، ويدرس ساعات متواليات ، ويقرأ الرسائل العديدة التي لم يهمل يوماً الاجابة على واحدة منها ، ويستقبل الزائرين من كل البلدان ؛ فكم من قصيدة او رواية او اغنية قوطع الالهام فيها عليه فأهملت وذُفن شيء من النور في اكفان الدم . يجادل في كل مشكلة ، علمية او فنية ، ويشرف على الصلاة او يعظ في الاجتماعات مرشداً الى الصلاح ، او يدرب تلاميذه على رواية اعدّها ، او يرأس حفلة ادبية او فلسفية او موسيقية . وفي كل ذلك كان هادئاً يسير الحياة ولا تسيّر الحياة ، يعيش يومه ولا يضغط على يومه ولا يظهر امام الناس بمظهر المسرع الكثير المدوم ، بل كان في حضوره فيضاً من الراحة والطأنينة ، ينصرف الى عمله الحاضر دون لفتة موجبة الى ما فات ، او خشية ما سيأتي .

لقد حفظ طاغور كل عاداته كل حياته وما اقلع عن واحدة منها لعلسه ان كل ما تهب الطبيعة خير وجمال . فكان دائماً ذلك المغني الموسيقار الجميل الصوت ، وذلك الراقص الرشيق الثقلات ، وذلك الرياضي الماهر الذي كم قطع نهر « الفانج » ساجماً وكم قام برحلة شاقّة بين الجبال الوعرة لا يستين بغير عصاه . وما كانت المناخات الاوربية بقاوتها لتردعه عن عاداته ؛ ينهض قبل

الفجر ورياض جسده باعمال متعبة يستحم بعدها في الماء البارد ويسعد بالتأمل المتعاد ، ثم ينصرف الى الكتابة والتأليف والتعليم والارشاد . وعند الماء قرب غياب الشمس كان يدرس اللغة السنسكريتية وعلم النجوم الى ساعات متأخرة في الليل . ولم من عمل وجهد بين شروق شمس وغروبها .

طاغور كان بعيداً عن ذلك المتصرف اللاواعي الذي نتصوره غالباً ، بل كان عاملاً نشيطاً عصياً يحمل الالم بصبر ويرى الحياة يواقها فيقبلها عالماً انها جميلة رغم المتاعب ، وهكذا يصبر على متاعبها . في ليلة من الليالي العواصف ، نهض من فراشه ليوجد شباكه فانطبق الشباك على اصبعه فانزع ظفره وجرح جرحاً بليغاً ولكنه لم يشأ ان يزعج احداً بل سهر طول الليل يداوي بالتأمل والفرح الداخلي آلامه المرة . وفي الصباح لم يمنعه الضاد الثقيل عن الكتابة ولا يزال تلاميذه يحفظون تلك الصفحات الضخمة الاسطر التي خطتها يمينه المحروحة .

هذا يدلنا على ان طاغور لم يهمل يوماً واحداً رسالته ، رسالة الشاعر المتطلبية المرهقة . لقد كان الالام يتبعه دائماً ، وكان يكفيه ان يحلو قليلاً بنفسه لتطلع في خاتمة دنيا من البحر تمبق بشيم الجمال وعطر انقاسه . فكأنما ربة الشر على ميعادٍ معه متواصل لا يحلو قليلاً الا وتأتيه بجمود من ضباب يتوضع فيه رسوم الجمال ويسع منه عزف موسيقى سحرية . فانا انبت في تيارته وتر ابداء ، فهي دائماً مُحكمة في انتظار ويكفيه ان يلامسها بطرف اصبع لينجس منها سيل دقائق من النفث .

من المؤلف الموجه ان يجبل الكثيرون هذا الوجه الشرقي ، اوضح وجوه الشرق وألمها تقاطيع . ومن عرفه شوه جماله بغير الحقيقة والواقع . منهم من جعلوا طاغور متصوفاً حالمًا يقضي ليلته في سمر مع النجوم ونهاراته في غزلة بين الجبال . لقد كان اجل متصوفاً ولكن راعياً ينظر الى الحياة نظرة حقيقية فيراها كما هي ، ثم يجتل الحياة بفتى من جمال نفسه : وهنا سرّ معنويته وتفرد عبقرية . لقد كان من عصره ، لا قبل ولا بعد ، بسيطاً في القول والعمل وطريقة العيش ، كانه عادي من الناس . ولكنه كان فوق العاديين من الناس . هو من الافراد القلائل الذين يطبعون اجيالهم بمسحة خاصة يعلق بها شي . من

م . نفوسهم المعوسة بالانور . هو من الامران انضم الذين عرفوا ب بكتشعوا
 في ترافه الحياة العادية المتسقة اعجوبة جديدة في كل يوم جديد . اذا كان في
 مطلع شبابه أثر الخلوة على الاندماج بين الناس فما كان ذلك الا اختراناً لقوى
 روحية سيكرسها لخدمة القاطنين معه دروب الزمان . لقد قيل في الشاعر
 الفرنسي المذاهل : « ماذا كان صنع لافونتين لو لم يسح له اولاً بان لا يعمل
 شيئاً . » اما طاغور فمزله كانت تأمللاً (هل التأمل بطالة ؟) ، تأمللاً بجرافات
 البشرية وبالذوا . الذي يعزم على تقديمه لها . واذا بطاغور يقرب من الناس
 يوماً عن يوم فيتكلم معهم على مساند الافراح والأحزان ويعبر عنها وعن كل
 مشكلة ومعضلة تتخبط بها بلاده او تثقل على تفكير العالم :

« لا ابني الموت في هذا العالم الجميل .

بل احب العيش بين ظهراي البشر

فانحوا لي مجال العيش في نور الشمس

في هذه المدينة الزاهرة ، بين الغلوب النابضة . . .

دعوني ابني دار خلود بقصائد انسجها

من انشيد الناس في افراحهم واحزانهم . . . »

كل ما له علاقة بالانسان لم يكن غريباً عن طاغور ؛ وقد تقصت حياته
 في اكتشاف ذاته واحداً من الكون عيشي في ركاب الاجيال وتفتي حياة
 الانسانية فيه :

« ان الحياة المندفعة ، الزاخرة في عروقي خارا و ليلاً ، هي نفسها ترخر

في الكون نابضة ، موزونة ، راقصة ،

وهي نفسها تتأرجح مدأ وجزراً في اليم ، مهد الولادة والموت .

انه مجرد لاعضائي ان الامر عالم الحياة هذا ، وانه مجرد لدمي ان ترقص

فيه ، هذه الساعة ، حياة خفتت بما الاجيال (ا . »

هذا التأخي مع كل ما في الوجود ، هذه العلاقات الانسانية الاساسية
 الحية جعلت من طاغور انساناً عالمياً واسع الفكر والقلب « لا يفتق بابيه بوجه

احد « كما يقول ، ولا بوجه فنّ من الفنون . في المزيقي والتصوير والشعر والفلسفة كانت له رنات وريشات ورعشات وآراء . حائبة . نبوغه العالمي ادعس العالم ويدهشه . فكل موجة وتزعّة وخفقة مرّت بالانسان ، فتح طاغور لها قلبه ، فالتعصب لدين على دين وعادى علماء من العلوم ولا حصر هم بفن من الفنون او حقيقة من الحقائق ، ولقد قال مرة : « اذا اوجدت بابك بوجه كل الضلالات بقيت الحقيقة خارجاً . »

لقد كان طاغور قيّارةً مشدودةً الى غضن شجرة كلما مرّت نسمةً حنّ فيها وتر وانفلتت نغمات :

وهذه السهولة وهذا النبوغ في كل الفنون قد يشرحها ، اذا صحّ ان النبوغ يتأثر بظروف عارضة ، ميراث طاغور العائلي : فهو قد ولد في عائلة محل اعطائها مننون وشعرا . ومصوّرون .

حياته :

سنة ١٨٦١ ، يوم الاثنين في السادس من شهر ايار ، في «جوورسنبكو» قصر الجردود ، في قلب مدينة كلكتوتا ، شاهد طاغور الشمس لأول مرة . وسماه ايوه « رابيندرا » اي الشمس تائلاً : « ان هذا الطفل سينير العالم يوماً . » كانت عائلة طاغور ذات مجب وشهرة وجاه وعدد فجدّه الامير «دوراكانات» كان « ميسين » عصره يناصر الآداب والفنون ويدافع عن اصحابها ، وايه « دافندرانات » لب دوراً عظيماً في تاريخ بنغاليا الديني وحمل اسم « مهاراج » اي القديس .

ورابيندرانات كان اصغر اخوته الثمانية الذين سوف يصبح اكثرهم فيما بعد شعرا . وفنانين ومزيقيين تذييع الهند اسنيم . واحدة من اخواته كانت اول امرأة كاتبة في الامة البنغالية ، ألقت عدداً كبيراً من القصص والدراميات . فكأنما ربة الشعر والعلم والسعادة حلّت في ذلك البيت وهيأت مكاناً يليق بن سيصبح عن قريب مطرب العالم ومفيق آمال البشرية في برهات بؤسها ويأسها . وما تحركت رجلاه للشبي وتحرك لسانه الا وسأله اهله ان يقول شعراً . نشأ الفتى رابيندرانات في ذلك الجو العائلي الذي روحاً ونبأ وثورة ،

فلم يندمج بباقي الاطفال ليشرق ثيابه بين الامداد ويهيم جسمه النسبي على الصخور والاشواك ، ذاك ان عائلته ارادت ان تعني بتثقيفه بكل الاعتناء . فأرسل الى المدرسة ، ولكن الفتى لم يكن من السهول يستطيعون الخضوع لنظام المدونة الصارم ، فزعته الشديدة الى الحرية ، واحساسه الشديد التأثر ، وافكاره الخيرة المشرّدة لم تكن اتساعه في الانكباب المجهد على الدرس فكان تلميذاً طائشاً . فاخذ ابوه على نفسه تعاقبه واحضر له معلمين ليدرسوه المنكريّة والانكليزية .

كان رابندرانات في الثانية عشرة من عمره عندما ذهب الى سانتي نيكاتان Shanti Nikeian (موطن السلام) ، وهي بيت للخلوة والتأمل اسمه ابوه ، وذهب بعد ذلك الى جبال حملايا . وهناك اخذت تلك النفس الفتية الرحيبة تنظر رحيباً الى العالم من اعلى قاته . وعاد من رحلته الى كلكتوتا مدهوشاً حاملاً في نفسه رنين الجبال الحاملة بلقا . الله وفسحة السهول حيث تربض ظلال العلاء على الارض تحت اقدام اشجار الصحاري البعيدة .

في السنة التالية ماتت امه ، فكان لهذا الحدث اعتمى اثر في دافولة الفتى ولم يندمل الجرح الذي اصابه طول حياته وسيحصل حزنه على امه حتى « حافة المجهول » ولا يسلرها . ذلك الذي سيتفتى بعبادة الامهات قربب الاسرة ، بجديث الاطفال الى الامهات ، الذي سينشد اجمل اغاني الامومة والطفولة ، لم يعرف تماماً ، وهو طفل ، ما هي الامومة :

« سانظم بدموع الامي عقوداً من الدرر ازين بها عنفك

يا امي . . .

وحزني يبقي لي وحدي . . .

لقد انظف المصباح الذي يضيء ظلامي . . . »

وسيتذكر امه تذكراً موجهاً بعد سنوات فيقول على لسانها :

« اتنا يا بني نترلق مرعبين في نحر الوجود .

وعما قلبن نتجرنا الحياة .

وسيدل النيران استاره على حينا . . . »

ولكنها ستذكره كما يتذكر الجبلُ الراسخ النهرَ الذي تمرَّغ على اقدامه
وذهب بعيداً :

« النهر يجري سريعاً مرتلاً اغتيته ،

يشق طريقه بين السدود والصخور ؛

ولكن الجبل الراسخ يظل قائماً يتذكر ،

وبرافق النهرَ بانظاره من ميد ، وقلبه طافح بالحب . . . »

كان رايندرانات في الرابعة عشرة حيناً بدأ ينتقي من دفتره الازرق المشهور
الذي كان يكتب عليه قصائده ، بعض مقطوعات من شعره ويرسلها الى
اشهر مجلة ادبية في كلكتوتا ، فاخذت الانظار تجوم حوله . لكنه ظل على
الاخلاق التي تعودها ، سابع الافكار ، ذاهلاً عن الدروس . اما ابيه فلم
يكن بالذاهل عنه ، ولم تكن لتكفيه شهرة ابنه العابرة ، فارسله الى معهد
مار فرنيس كسفاريوس الذي يديره يسوعيون من بلجيكا ، وذلك طمعاً بتلين
اخلاقه ؛ ولكن الشاعر الصغير ظل يمشق الاحلام والحرية وينبذ كسبه . وفي
تلك الحقبة من عمره بدأت تطلّ شعلات النبوغ فظهرت فيه موهبة الكاتب
ونظم معزوفاته الاولى التي كان يغنيها بصوته الرائق الجليل يعاونه اخوه
فيزعجون الاهل ويزعجون الناس بالنناء . لم تطل اقامة رايندرانات في معهد
الجديد فتركه ، وقد كتب بعد خمسين سنة هذه الكلمات :

« احفظ ذكرى - مؤثرة من معهد كلكتوتا ، هي ذكرى الاب « بنورا ندو » . لقد
كان قليل اللاقة بنا ، واطن انه اخذ محل احد المسلمين في صفنا . وفي وقت المسابقات
كانت افكاره ، والريشة في يدي ، تترد هنا وهناك . ذات يوم بينما كان الاب يناظرنا
ويشي ذهاً واياً بى المفاعل ، لاحظ ان ريشتي لم تتحرك منذ وقت في يدي . وفجأة
وقف وراني وانحنى واضماً يده على كتفي قائلاً جده ونومة : « أتمس بمرض يا صغيري ؟ »
انه لسؤال بسيط ولكني لم استطع ان انساه ابداً . لست اعلم ما كان شعور التلاميذ في
حضرته اما انا فكننت اشتر بمضور نفس كبيرة ، وما برحت حتى اليوم ذكرى تلك الروح
تدعوني الى ان ألج خلوة هيكل الله . »

هكذا كان رايندرانات الصغير يرى الكبير في الارض ويحفظ له ذكرى .
لم يحفظ في ذاكرته رسم معلمه ولا شكله الخارجي ، ولكنه حفظ ذكرى
روح كبيرة قديسة « ما برحت تدعوه الى ان يلج خلوة هيكل الله » .

وستكون حربه كلها خوةً بين الله و صبيحة وعسه وقد اعترف احد
اصدقائه الذين قضوا معه اكثر من خمس وعشرين سنة ، بان قليلاً من الناس
قضوا شبابهم في خاوة كخلوته في القرى وعلى ضفاف السواقي وظلال الاشجار .
لا شك في انه بعد تلك الخوة الاولى قد انتقل الى معمة العالم والى ضجيج
ساحاته وعواصم بلدانه ولكنه لم يفقد مرة في حياته تلك القدرة على التأمل
والاختلا . بالرغم من الضجيج ، وظل فتي النفس ، وظل كالطبيعة المتجددة
التي احبها ، ينمض كل صباح وفيه عزم جديد الى دخول حقل الحياة الواسع .
وهذا ما يشرح لنا ايضاً تلك القدرة القرية على التأليف حتى على جافة القبر .
وهكذا قضى السنوات الاولى من مطلع شبابه متمتاً بمجال الطبيعة ،
شارداً ، متفلقاً من قيود المدرسة وتدجيل الناس ، يدور في مقاطعات الهند
متأملاً يحسّ بالسعادة تتفاعل في كل مغاوق من الوجود :

« اني ازرع الطريق وحيداً عبر الحقول والنسس تجمع اشعتها

وننم ذهبها المثار على الارض كأنها بجبل شجيج ،

وضوء النهار يرنق رويداً رويداً في اعماق الظلام . . .

وفي المنازل . . . قلوب الامهات ، ومصايح الليل ، واطفال في سعادة

وحيور ،

سعادة من لا يعرف شيئاً عن قيته للعالم . »

لم يرض والد رايندرانات عن تلك الاخلاق النازعة الى التخوض ، المجهلة
من الاساتذة ، ولم يكن الولد ليلين ، الى ان أرسل وهو في السابعة عشرة
الى انكلترا ليدرس الحقوق . فسجل اسمه في « بريتون » (Brighton) ثم
التحق بجامعة لندرا ومكث هناك اربعة عشر شهراً يفتح قلبه للآداب والموسيقى
الاوربية فيقرأ شكسبير وملتون ووليم بلارك وشلي وتروقه الاطنان الارلندية
القديمة ، ولكنه لا يدرس الحقوق .

وينود الى اهند ليطلع باناشيد وقصائد ومحاولات عديدة يُفرغ فيها كل
قلبه الرئاب المحب الحياة وشوقه الى وجه محبوب وجمال امثل يحسن الى الاجتماع
بها وتعبير الارض عن تقديمها له :

« بين ضجيج العالم الصاخب الجسوح ، يا ربة الجمال ، المحفورة في الصخر ،

نظاين هادئة صامتة ! -

الزمان يركع على قدميك متنتساً :
« نكلدي ، حدثيني ، ايتها الحبيبة ! »
ولكن حديثك محببٌ في الحجر ،
بادرة الجبال اللاشجرة ! »

انتحى طاغور زاويةً من قلبه ابتعد فيها عن مسايرة الناس في اذواقهم
الادبية وفي تقليدهم الرث ، فاطل كتابه « اغاني الغروب » وفيه اليأس يمشي
في موكب الامل ، وفيه ايضاً كآبة ناعمة تندمج بفرح زام فلا تُعرف أهي
كآبة ام فرح أهي غبطة بالحياة ام قلق وخشية :

نومة الليالي. اللأى بالنور والريح ،
ستورد لنا ، ستورد .
ولكن الذي هجرنا لن يود لنا ، لن يود
ولن تراه ابداً . »

لم يهتد بعد طاغور سبيله . انه في تلك الزاوية المعتمة من فواده الوحيد
الذي يقطنه كل شاب في عمره . ولكن سوف يقطع تلك المرحلة التي تفصله
عن باقي اخوانه في معركة الحياة وستندمج عواطفهم بهواظهم حين كان ذات
مساء - كما يقول في ذكرياته - يتشى على سطح داره . في تلك الفترة الهادئة
نسي طاغور ذاته الفردية بانث له الحياة في شربها واخوتها الكبرى ، فكتب
تحت تأثير تلك الغبطة قصيدته :

« الينبرع المستفيق » الحالم بفيض. على كل القرى والسهول :

« آه ! خفتة الماء الصاعدة الفياضة ،
ثورة قلبي وحيي للحياة ، لن اصد امامها !
اريد ان اهدم هذا السجن الصخري
فانكب سبلاً فياًضاً
وأغرق العالم بانفامي المجنونة المحنومة ! . . . »

احس طاغور منذ تلك الآونة بالرباط الوثيق الذي يشد بنفسه الى العالم ،
فاذا بذلك الاتصال لشدة ما هو مرهف دقيق « يكاد يكون مؤثلاً . »

وفي هذا الجو الاعماسي كتب طاغور « اغاني الشروق » فدخل في عالمه
الرحب حيث سيظل كل الحياة يكتشف كل يوم لوناً بجديداً من الوانها ؛

وهذا العالم هو الكون بأسره ، هو الانسانية مع كل ما تعصف بها من تثرات .
وهكذا ذاعت شهرة طاغور .

وبعد اربع سنوات كتب قصائد رائعة في « الجمل الامثل » ، الكتاب الذي هو من اجل ما كتب . لقد صفت لغته من القروض الذي كان يشوبها وانجبت رسوم الاحلام التي كان يتعقبها . فالجمل الذي يبحث عنه لن يريده بعد اشباعاً لانانية ضيقة ، بل مثلاً سامياً تتعاقد فيه كل الارواح . ولحين هنالك مسحة سرّ وخيال تطغى على قصائده وتجعل لها طابعاً خاصاً . ولكن هذا الطابع الشخصي كان ابعد من ان يحد من طاغور في الاثرة المحدودة نظير الرومنطيين الاوربيين . انه يحاول ان يعبر عن الشوق اللامتناهي وعن الحياة والقوة الخلاقة التي تمشي في النفس الفردية وتمشي في الوجود .

في سنة ١٨٨٣ تزوج طاغور « مريثالي داثي » . وكان ذلك الحدث عمداً في حياته مملوءاً بالصحو والامن بعد زوابع سرية عصفت في فواده . واذا به ينتهي الجبل مقراً ويعيش في خلوة هادئة ينظم اشعاراً واغاني تراققه وزوجه في إنشادها ، بينما هو ينقر على العود ؟ ومن ثم انتقل الى « شليدا » لادارة مقاطعة عائلية وربما .

كان طاغور في التاسعة والعشرين حين توجه ثانية الى اوربة فدار في ايطاليا وفرنسة وانكلترة وعاد من رحلته هذه فذاعت شهرته في الاوساط الثقافية في كلكتوتا وعين حال رجوعه وكيلاً عن رئيس اكاديمية الآداب البنغالية .

وهنا بدأ طاغور حياة العراك والكفاح واندفع في خضم المجتمع بمحاول بغنه ان يداوي ادوا . بلاده المتأصلة فيعلم بني امته في القصص التي يكسبها جمال التضحية وخدمة الوطن ، ويلهب بجنطبه النارية الصاعقة قلوب الهنديين داعياً ايهم الى نبذ التطاحن والتخاذل والوقوف على ابواب الامم حفاة عزاة ؛ وباغانيه الشعبية كان يوقظ فيهم روح القومية والزهضة . ولكن مرحلته السياسية لم تطل ، لان هناك توافه الحياة واعرجاجات الياسة وتآثرها وتصّتها تفسد على الفنان جمال فنه وحلمه وروعة الهدف الذي يصبو اليه . هكذا انكفأ من المعركة الى العزلة ، وقد تعلم من هذا الاختيار المضّ ان الشعب لن

ينفض ويتابع نهخته. اذا لم يكن له من ثقافة روحه داع يهيب به كل حين الى النهوض ومتابعة الجهاد .

عاد ادراجه ولكنه لم ييأس . يريد خدمة بلاده عن طريق اثبت وآمن . يريد تهذيب الشعب وفتح روحه المغلقة على العالم كله . واتقد علم ان للأيام دوراً في نشره الأهم وارتقاها ٢ وان ساعة التفتح لا تأتي بسرعة او بقطع مسافات الزمن ، بل بالتريث والانكفاف اليومي على نحت الذات وصلها ، وبعثها اخيراً الى النور . وذلك يتطلب شهوراً وسنين .
وفي سيئل ذلك سيكرس طاغور نصف عمره تماماً ، وهو في الاربعين .

≡

ترك كل كروتا وجوها السياسي حيث تتخبط المشاحنات واعتدل في الخلوة التي اسما ابوه في « شانتى نيكاتان » (Shanti Niketan) وهناك بدأ التليذ القديم الذي رفض نظام المدرسة وصرامتها ، يدعو التلاميذ الى العالم ويمهد لهم السرور والحرية والتعليم حسب الطبيعة وحسب دعوة كل في الحياة . ارادها لا حانوتاً ضيقاً تضع في الشخصية القتية ضمن نظام يستبد ، بل مرجاً واسماً يعطف القتي منه الزهرة التي توافتي ميله ويرزها في حقل نفسه ويتمهدا فينسي العطفية الاساسية التي اسبغتها عليه السماء .

وبدأت الحياة مجحف بحقه فماتت زوجته (١٩٠٢) ومات معها في نفس الشاعر شي . من الحنان والنبطة . وتتابعت عليه المصائب العائلية الفادحة . ففقد ابنته الصغرى (١٩٠٤) ولم يخلف الاصفرون اذا غابوا من حرقته في قلوب الاهل ، وققد اباه الرجل الحازم « القديس » (١٩٠٥) وققد ابنه الاكبر (١٩٠٧) . ترى اية تغزية لرجل الفن في الآونة العصية غير فنه ؟ اذكر ما قرأت ان « موزار » يوم كان الفقير يعضه بانيا به القاسية ويصادر الجلود اثنت بيته الرث البالي رغم ولواة الزوج ونجيب الاطفال ، كان مع آتته الموسيقية يضرب الحاناً يتناسى بها الواقع المؤلم المرير ويخلق بها دنيا من العدالة والرفق بالانسان اجمل من دنيانا . كذلك كان طاغور يهر الليل الطويل قرب فراش ابنته العليله يكتب اشعاره ويبعث الامال المحترضة مع الصغيرة المحترضة . قرب ذلك الفراش ، كتب الشاعر ديوانه « الطفل » طالباً في الفن وفي عالم

الطفولة سلوى عن الطفولة التي يصرعها . توت وسيندي ب عملاً قبيلاً وكتب
ايضاً « التذكار » ، وهو مجري ارق اشير قيلت في رنة . قيد :

« كل شيء . حولي ظل على ما كان عيه :

الاشجار والتراب ، المياه والنس ، القمر والنجوم ،

انما الشخص الذي كان الصق بيباتي من كل هذا ،

قد توارى في لحظة كما بتوارى الحلم . »

قد تضعف المديبة قلب الرجل العادي ، اما رجل الفن فاذا هاله الواقع
يفتني فتحمل الكلمات آلامه ويبقى في نفسه الامل بالحياة .

عندما بلغ طاغور الخمين من عمره احتفلت الهند كلها بذكرى مولده في
عيد شعبي حافل . ف نشر كتابه « قربان الاغاني »^١ وترجمه بذاته الى الانكليزية ،
فقفزت شهرته ورا . حدود بنغاليا والهند اتصل بالهالم كله نظير ذكائه الواسع
وصدره الرحيب .

لا يسعنا ان نتبع طاغور في كل مؤلفاته وان ندرسها ، نظراً لغزارتها ،
فان ذلك يتطلب مجلداً ضخماً ، بل نقصر على سرد حياته والاماع الى بعض
مؤلفات اخرى غير التي ذكرنا .

١٩١٣ - لا هم لطاغور بعد الآن الا جامعة (Shanti Niketan)
فيسكرس كل جهوده في سبيلها . لقد ترك بلاده ورحل نحو الولايات المتحدة
يحاظر ويقنع الأمة الايركية بمجراة القلب والاخلاص بضرورة ما يسعى لاجله .
ثم توجه نحو انكلترة يلقي المحاضرات العديدة فيحافنه التجاح في لندرة حيث
ظهر بالانكليزية ايضاً كتابه « بستاني الهوى » و « الهلال » . وكان ان اعجب
الشاعر الايرلندي (Yeats) « بقران الاغاني » فقدم طاغور الى اعضاء الجائزة
نوبل فاعطيت الجائزة له بعد ان ترجم كتابه الى اللغة الاسرجية بعلم الكاتبة
(Andréa de Butenschön) . وهكذا لفت الشاعر الهندي الكبير انظار
العالم . فتكرست شيرته ، وتناست جامعة كلكتوتا تلميذها القديم الكورل
فمنحته لقب دكتور شرف .

(١) راجع « قربان الاغاني » ترجمة يوحنا نجر . مطبعة المرسلين اللبنانيين .

١٩١٤ - وتتابعت منشوراته ، والغرب المحوم يعني بالدماغ. الثائرة المتفجرة . فن « دورة الربيع » الى « سلة ثمار » الى « الهاربة » مرآ « باليت والعالم » ، اجمل روايات طاغور على الاطلاق . بطل الرواية هو طاغور نفسه في المعترك السياسي حيث ينص عليه الثوريون اعتداله ، وينص عليه المحافظون ثورته ، اما هو فيعلن دائماً صوت الحق والعدالة الانسانية التي تقبل بالواقع وتقبله وانها الرحلة الرابعة تدعوه فيسير الى اليابان والى الولايات المتحدة من جديد وتقذف به الضرورة الى السياسة مرة ثانية بالرغم منه فاذا هو رئيس المؤتمر الوطني الهندي في كلكتوتا .

ولكنه ما كان ليتناسى فكرته التي كرس حياته نهائياً من اجلها ، ألا وهي توسيع نطاق جامعته ، وجعلها نقطة التقاء وتقاوم بين الامم ، بين امم الشرق والغرب لكي تقضي المنازعات المستمرة التي ما برحت بلاده منذ ١٩٠٧ تقاسي البلايا من جرائها . وفي سبيل فكرته هذه قدم ربيع جائزة نوبل التي اعطيت له ، وقدم كل حقوقه على مؤلفاته بالبنغالية ومقاطعة (Shanti Niketan) ملك اجداده .

ويتما كان غاندي ينحني على واقع بلاده المرير ليحاول ابعاد مصيبة الساعة الحاضرة ، كان طاغور ينظر الى المستقبل فينبه يوماً يوماً ويحارل ان ينهض بالواقع الموجع الى جمال المستقبل الضاحك .

لن يرتاح طاغور طول حياته ما دامت فكرته تلح عليه . هو على اهبة الانطلاق دائماً الى اقاصي العالم لكي يطلع العالم على مشروعه ويقنمه بان التفاهم ضرورة انسانية لا سبيل الى الاغضاء عنها . فها هو يدور في البلدان يحطّب ويحاضر بلهجة حارة واقناع ملتهب في انكلترة وفرنسة وهولندية وروبرمة والمانيّة والدانورك واسوج والنسة وتشكوسلوفاكيا .

١٩٢١ - طاغور في الستين من عمره - امامه عشرون سنة بعد سوف يلاها بالرحلات والاعمال والتأليف . هو يتعد لتدشين جامعته فتوسل الدول ممثلين الى تلك البقعة النائية في الهند ، البعيدة عن صخب المدينة الكاذبة ، الى الطبيعة الحقة ، فكانت اول خطوة في التفاهم بين الناس .

من «عصبة الأمم» الرامية الى اقرار السلام في العالم ، وما أقرت سلاماً ، الى «هيئة الأمم المتحدة» الرامية الى الغاية ذاتها والعائدة بالنقل ذاته ، الى «الاونيسكو» ، التي ما افلحت بعد في تهدئة الحواطر العالمية الهالكة ، في كل هذه المحاولات فات المحاولين ان التفاهم والسلام لا يستقران بين ليلة حرب وضحاها ، فيها بناء صابر يتطلب أياماً وشهوراً وسنين . الاونيسكو يجب أن تكون نتيجة تهذيب عقلي وتعليم طويل ، والنتيجة لن يبلغ اليها بغير الوسائل ، والوسيلة الوحيدة هي تثقيف الشعوب بثقافتنا ، فالنتيجة الدولية المتفاهمة لا تكفي . وفكرة طاغور هي الكافية لانها تعنى بالاساس .

في (Shanti Niketan) مدرسة تعليم ابتدائي ، ومعهد عال ، ومركز للابحاث العلمية ، ومعهد للفن والموسيقى ، ومكتبة ضخمة تحوي ستة وثلاثين الف كتاب من جميع لغات العالم . وتصدر منها مجلة تبحث في الفن والادب والفلسفة .

« هنا حفل لالاب «التيس» ، هناك فتيان او فتيات من أمم مختلفة يتجادلون بكن الواضح ويثربون الشاي ؛ هذا هو المختبر الجديد يرفع جدرانه اللامعة تحت اشعة شمس محرقة ، وهذا عالم صيني يتخفي فوق مخطوطة ، تلك عربية مملوءة حصى يقودها عمال نشيطون . الحركة في كل الجهات . هنا الفناء ، هنا الرقص ، هنا الرسوم الفنية ، هنا النحت ، هنا العمال القرويون يسئناهم المختلفة من نسج وحياسة و . . . »

هذه الحياة التي تضع في تلك البقعة ، هي قبس الامل الطالع يشر بالاتفاق والتفاهم والايان بقية الشخص البشري ، وطاغور هو المحرك الاول ، المرسل الاول ، الوثائق الاول .

٢٥ - ١٩٢٤ - طاغور ، السائح الكبير ، الرحالة الذي لا يتعب يسير في رحلة سادسية تستغرق اربعة شهور الى الشرق الاقصى : من ماليزيا الى الصين الى اليابان ، ثم يتوجه بعد ذلك الى البيرو والأرجنتين وبعدها الى ايطاليا . ثم يعود الى كلكتوتا حيث يعين رئيس المؤتمر الفلسفي للهند . أثرت هذه الرحلات الشاقة على صحته فسات بعض الشيء ، وقطع عليه المرض بعض ليايه . ولكنه لن يتم ويدعوه الداعي مجدداً فيشي الى ايطالية وسويسرة والنسة وفرنسة وانكلترة وزوج واسوج والداغارك والمانية وتشكولواكيا

وهنغاريا ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا وتركيا واليونان ومصر .

ترى ما الذي اقدمه عن المرور ببلبنان ؟

١٩٢٧ - هي رحلته التاسعة الى ماليزيا وجاڤا وبالي والسيام .

١٩٢٨ - الى ماليزيا والصين واليابان وكندا والمهند الصينية حيث استقبلته

الحكومة رسمياً في سايترون .

٣١ - ١٩٣٠ - طاغور في السبعين من عمره يتوجه الى فرنسا وانكلترا

والدافارك والمانية وروسية والولايات المتحدة .

اما غايته من كل هذه التنقلات فهي ان يعرف العالم بحجامة ويحج لها انصافات ويشير بفكرة السلام - وان طاغور رجل السلام العالمي يحمل من كل بلد مر به شيئاً من عبقرية ذلك البلد وينقله الى الآخر فيحل شي من التفاهم بين الامم بشخصه . لقد كان هو الجامعة الذي صهر كل العبقريات في نار ونور روحه ، وحمل هموم العالم من قطب الى قطب بين اضلاعه - طاغور ، ابن العالم ، لم يعرف حدوداً لنفسه ، فهي بنت الله اللامحدود ، وهي مقدمة ايذاً بظلم اخرس لا تعرف اء هدوءاً :

« ان نفسي تلبس اليوم رداً المافر وخيم

يلج عليها ظمأً نائر ،

فهي تلهفت الى الاندفاع في الطريق . »

هو ذلك المجهول يدعوه الى فثشي مفنشة ، باحثه . هي تبحث عن سر

العلاقة بين الامم ، عن سر المحبة الذي يعقد الناس ببعضهم ، يبحث في النهاية

عن الله ، ولقد عرف ذاته بعد هذا كله وعرف الله في ذاته قريباً ، محباً :

« ايام اسفاري طوبلة ، وبطريتي بيد .

خرجت في سوكب الشماغ الاول ووجبت العوالم الخليلية -

وتركت شيئاً مني على الوف النجوم والكواكب

ولكن ابعد الطرق اقربها اليك . . .

على المسافر ان يطرق على كل باب قبل الوقوف على باب نفسه ،

وعليه ان يحيم في سرح العوالم الخارجية قبل ان يتدي الى قدس اقداسه!

عيناى كم جابنا من فضاء قبل ان انمضها واقول : انت هنا !»



« ايها القلب النسيم ، أفأستطيع ان اقبض على الدنيا كثمرة ناضجة لاصفيا
بين يديك الورديتين ؟ »

(طاغور)



ازفت ساعة الرحيل ... اني اسافر فارغ اليدين طافح القلب بالامل ...
طير يملق في الفضاء، لا ليذهب في تحليقه الى الخلاء ، بل ليرجع ثانية الى ارضه
عظمى

« انت هنا » هي الكلمة العظيمة التي قالها شاعر الهند . اذا كان « هنا »
فما حاجة بعد الى الذهاب بعيداً . واستقر طاغور في المقر الذي سعى في انشائه
السنين الطويلة . ولكنه ما برح يتابع نشاطه في نشره في السنة الاخيرة من
حياته ، خمسة دواوين شعرية ، وتأتيه من جميع الانحاء . جموع المعجبين به
فيستقبل الكل بتلك المهابة التي عرف بها وبذلك الابتسامة التي رافقت دوماً
حياته .

منذ ذلك الحين اصبحت جامعته المركز الرسمي حيث تتلاقى الآن صفوف
من جميع امم الارض ؛ اما ادارتها فهي بيد ابنه رآيندراوات طاغور ...
لم يبق له من العمر الا سنة واحدة ، سنة تسا الام فيها عليه . فكانت
فرصة للتأمل ليس باله الفردي ، بل بالأم الجماعة البشرية ، رفاقه السائرين
معه على الطريق ، المنشدين في معزوفة الحياة المتجددة كل حين . والام عند
طاغور هو الدواء الذي يغسل النفس من الارجاس التي علق بها اثناء رحلتها
على مسرح الحياة . والحياة غسل وتطهير متواصل ينتهي بالموت ، والموت ان
هو الا نعمة من انشودة الحياة المنقلة من عند الله ، والتي تتجدد دوماً في
اطار ابدي .

عاش طاغور آخر ايامه في بساطة كاملة . فكان يقطن بيتاً صغيراً من
تراب بناه تلاميذه بأيديهم القوية . وكثيراً ما كانت العواصف تهزم في ذلك
البيت الخثير فتزعزع جوانبه الواهية ويوشك الشاعر العظيم ان يموت .

« في ذات يوم » اشتد المرض على جسده الناحل ، فنقل الى كلكتوتا ،
الى البيت الذي شاهد فيه الشمس لأول مرة ، وهناك اغمض عينيه لآخر مرة .
ذلك الذي سماه ابيه « الشمس لان العالم سيبتدي بنوره » فتح عينيه اذ ذلك
فابصر الشمس الحقيقية التي لا يمررها كسوف ولا نقصان .

« في ذات يوم » ، كذا كان يبدأ بالكثير من قصصه ، انتهت القصة
الرائعة التي عاشها ، ومات رابيندراوات طاغور :

« كيف تستطيع ان تنطع سلة الحب التي نجسنا ؟ ... »

انت سيدي وانا عبدك .

منذ الازل حتى انتهاء الاجيال ،
كان الحب بينك وبينى مفقوداً .
ان حباً كهذا كيف تمد شعته ؟ ... »

...

« من عرشه الازلي
ترل المسيح الى الارض
وفي كأس الموت المرير
سكب حياته الابدية
للذين لبوا نداءه
وللذين ظلوا الى الورا . . . »

...

« من هو ؟
نحن ما عرفناه وما رأيناه ابداً
ولكننا نعلم
انه غاية الانسان
واليه نثني في الليالي المظلمات ،
تحت الرابع والرعد
وفي مدى الاجيال . »

...

« خلصهم ! انت ، يا ذا الحياة الابدية
وليسموا صوت الرجاء ، صوتك الازلي ! ... »

...

الشاعر الفيلسوف

لقد كدت طاعور وتمب فلاقى انتصارات وعرف اخفاقاً . اعطته الحياة
ومنمت عنه . ولمكنه لم ييأس منها بل احبها حتى العبادة . وان ما كان من
شأنه ان يجعله برماً بالحياة متشاكماً ، زاده حباً للحياة وتملقاً وفرحاً بمجالها . لقد
احس باله واحد من هذا الكون العظيم ، له قيمته التي لا تتوخى ؛ واحس
بان هذه العلاقة التي تربطه بالخلائق ليست الا نتيجة وحدة اساسية تضم الكل

اليها في نظام ابدى لن يفسد . وفي كل فلسفته وكل شعره وموسيقاه
وتصويره ، يحاول طاغور ان يعبر عن تلك الملاقة التي تشده الى الكون ،
وتشد الكون الى الله .

وهذا الاحساس اورث عند كثير من الشعراء والفلاسفة قلماً مريباً . فهم
اذ يشعرون بانهم على صلة بكل الخلائق ، بآلام البشر وآمالهم باحزانهم
وافراحهم ، يشعرون ايضاً بان كل مخلوق هو اعزل امام مصيره يكونه وحده
بينما الخلائق في لهر عنه ، والاشياء في غفلة لا تنتبه اليه : هذه هي كل
مأساة الوجوديين المصريين . اما هذا الاجساس عند طاغور فكان سبب فرح
عظيم . غمر نفسه اذ تلاشت الحاجز التي تقيها الارادات المتنافرة سدوداً بوجه
الحب الموحد ، وانهارت رويداً رويداً امام العلاقات الاساسية التي بها يستطيع
الانسان ان ينادي كل مخلوق : يا اخي . اي شبه هنا بالقديس فرنسيس
الاسيزي !

وهذا ما جعل طاغور ينظر الى الحياة فيراها جميلة ، جميلة لا حد لجمالها ،
فوثق بملكة الأرض واحبها حتى يصل بها الى الله ، عن طريق الاتحاد بين
المناصر الثلاثة : الأنا ، الكون ، الله .

تشر وانت تقرأ طاغور بذلك الاتحاد مع الطبيعة ، مع اثمارها واشجارها ،
اشواكها وورودها ، تراباتها وصخورها ، اتحاد مع كل هبة نسيم وحقة غصن
على ضفة ساقية ، وانه جدول على نعومة صخور ، اتحاد في النهاية مع الذي
ابدع كل هذا .

لقد احس بانه اخ الفلاح الضارب في الحقل ، اخ الفيلسوف ، اخ
البرهمي ، اخ المرذول اللاملموس ، اخ العالم باسره . فاذا تألم في الكون وتر
كان في قلبه صدى الم داخلي عميق العور ، واذا انتشى طائر على غصن ، ترنت
في فواده اعداد واستفاقت مزامير . وهناك شاعر آخر اسمه (Ladislav Měcs)
احس بتلك الملاقة الودية بين الكل :

« انا امرأة تنكس فيها كل الابتسامات .

انا سامي من الحياة الا ان ارجع تلك البسات ،

الى الزهور والافراشات ، والادغال والاحام .
ان أرحمها . . . »

الى النور والنجوم والنسر ، والى الاغنياء والفقراء ،
الى الآلام والافراح ، والبؤس والسعادة .
الى الورد والشوك ، الى الصليب ،
ان أرحم بسة الكلى الى الذى هو الكلى ،
بسة الله الى الله . »

وكما قال « سوالي برودوم » فى المعنى ذاته ولكن مع شي . من التنازم :

« Tout mon être est lié à des fragiles nœuds
Au moindre ébranlement qu'un souffle cause en eux,
Je sens un peu de moi s'arracher à moi-même. »

وهذا التناؤل بالحياة جعل فلسفة طاغور تمر بالحلولية . ولكن الشاعر
اذ اصبح فيلسوفاً من الصعب عليه ان يتفلسف من فكرة الحلول وان لم يكن
حاولياً مؤمناً . اما متى عرفنا ان اعتقاد طاغور الدينى كان مزيجاً وانتقاءً من
جميل ما فى كل الاديان ، وان شعره كان رحابةً وذكاءً يقبل كل آثار العلم
الفنية ، وان عقله كان يوسع مقراً لاضمت مخلوقات الارض ، فندرك ما فى
فلسفته من الاتصال بكل ما فى الوجود من موجود .

بينما المهنود اجمالاً لا يتعرفون الى غير ذاتهم المحدودة كان طاغور مواطناً
عالمياً بافكاره ورحلاته . قد يكون ارحب فكر واكبر رحالة عرفه التاريخ ،
وقد يكون اعظم من رأى الحياة جميلةً بهذا المقدار ، وانشط من سعى الى
تجميل الحياة اكثر فاكتر عن طريق الثقة بالارض والعبادة لله . ولم يخش عند
ساعة الفراق ان يكون خالي الدين ، فان فى قلبه نزر الامل ، فرحلته
الاخيرة اجمل الرحلات :

« هذه ساعة الرحيل فادعوا لي بالتوفيق ، اتم يا احبابي !
الفجر احمرار يسبح فى السماء ، والدرب فسيحة ساحرة
لا تسألوني عما احمل . انى اسافر فارغ اليدين ،
طافح القلب بالامل ! . . . »

فمنده كل شي . جميل كاغنية جميلة : الحياة اغنية والموت اغنية والنفس
قيارة ترن على ارتاها اغاني الموت والحياة ، وتأتلف مع اغاني الارض كلها
لتغور في الاغنية العظمى التي ينشدها الله في فرحه الابدي ...

✽

الموسيقى

كان طاغور جميل الصوت ، حلو الأشرطة ، يؤلف القصائد ويلحنها
ويغنيها . وكثيراً ما كان يمثل ادواراً في رواياته فيبدع في التمثيل والغناء .
وحين يغني طاغور - حينما غنى في العراق قصيدته « الطائر المكسور الجناح » -
يتوارى ذلك المحدث الهادي الناعم فيظهر الموسيقار يتلوى مع النغم تارة في
ثورة جاحجة وطوراً في خفوت يحاكي هديل الورداء .

ولا عجب فبنغاليا هي بلد موسيقى تستمد مواضيعها من «جبالها وانعكاس
سواقيها المتلألئة المياه ، وهدوء ضياها المستكين ونعومة فثياتها . وخصوصاً
من ديانتها » . وطاغور ألفت في كل هذه المواضع فأبدع وكان مجيئه عصر
الموسيقى الذهبي ، ومن بعده اخذ هذا الفن في التهقر .

كل ما في طاغور نغم عذب مستطيل . فاذا شعر كان في برشره حين
رائق لا يستطيع الترجمة رغم وثنتها وبربريتها ان تلاشى رجعاته . وفي ذلك
قالت احدي البنغاليات المعجبات به ، وقد عنت ترجمة شعره : « ان الفراشات
المصبرة في رعا . تحت غطاء من زجاج ، تحتفظ على الاقل بشي . من الألوان
المتنوعة التي كانت تلقي على تلك الفراشات ثوب الجمال . » والشعر عند طاغور
موسيقى ، لانه تعبير عن النفس ، والنفس لحن من انشودة الخلائق المترفة
بتسحة الجمال الاول ومجلادة الكنى في الارض .

وطاغور اذا نثر ، كان لفكرته رنة خاصة . ففكرته دائماً موسيقية
تدخل الى القلب قبل ان تصعد الى الرأس - فكرته ملائ لا بذلك الجفاف
العقلي وتلك البرودة المنطقية الغربية ، بل بالافتقار الناعم الذي يتبلب الفؤاد
كما تقبل الاسفنجية الجافة قطرات الماء .

وطاغور اذا رسم^{١١} كان موسيقي الخطوط ، هادى المقاطع حيناً وتأثرها حيناً آخر . قدّر لي ان اقع على صفحة من كتاباته يتخللها رسم تبرز فيه بكل قوى الننان الموسيقية من حرارة ودفء وفي ، كلنا تلك الصفحة دعيتي لا الى قراتها بل الى ان اغنيها .

وطاغور اذا نظر الى الحياة متفلسفاً شاهدها قيثارة توقع عليها البشرية الخائبا ووجد ان كل انسان في الارض يوقع لحنه الخاص الذي اذا اجتمع بانغام الحلائق الاخرى لا يحدث من ذلك تموش واضطراب بل اتسلاف وكال . كلنا الكون كله آلة موسيقية متعددة الاوتار يتألفه النغمات في مزوفة الحب لله ، الحبيب الاول ؛ وهكذا شبه طاغور قلبه : « ان قلبي قيثارة تنقر عليها اصابع حبيبي . »

ولقد شعر طاغور بهذه الهبة التي أوتيتها وعلم انه سيخاد بها على الاقل في قلوب مواطنيه حين قال :

« يستطيع اهل بلادي ان يندوا فلسفي وشعري ولكنهم سيتذكرون دائما اغاني . »

وكيف يندونها والناحون في اراضيهم والقاذفون بالمجازيف على مياه التانج ، والامهات قرب مبود اطفالهن ، والفتيات في خلوات احلامهن ، والاطفال التلابون اللاهون ، والجنود الناضبون لكرامة استقلالهم الوطني ، وبنظايا كلها اليوم وغداً كلما عصفت بها رياح اليأس او جرى في نjordها نور الامل تعبر عن عواطفها باناشيد من طاغور .

وان طاغور قد ترك في الموسيقى آثاراً مدهشة وكتباً عديدة : « اغاني » ، « خمسون اشردة » ، « ترانيم » ، « الجدول » ، « رياضة في القنا . » وثلاثة دواوين موسيقية . فله اكثر من ألفي اغنية ألفها ولحنها .

ولا عجب في ذلك « فالشراء الحقييون » كما قال ، يحاولون ان يتصوروا الكون تصويراً موسيقياً ، لان الموسيقى هي اكل انواع الفن ، واصدق مهيرة عن الجمال .
١١ كان بوسنا ان نتكلم عن طاغور المرني ، والمثل ، خصوصاً الرسام الذي ترك الوفناً من اللوحات المصورة مع انه لم يشكرس لهذا الفن الا عند السبعين من عمره ، ولكن ضيق المجال لم يسمح لنا بذلك .

« والجمال حاصر في كل شيء. وكل شيء بوسعه ان يملأنا فرحاً ؛ وعندما نعرف ان نبدرك الجمال احسن مما ندركه ، كل خلل وتشويش ظاهر يبدو لنا نتماً موقتماً . . . واخيراً نعرف انه يأتلف مع سائر الانعام كلها . »
 هذه الوحدة ، هذا الائتلاف الشامل راود فكرة طاغور ؛ فلم يكن يستطيع ان يؤمن بما لا وحدة فيه : الكلمات تتوافق وتتحد بنوع من النغم يتنادي تلك الكلمة الى تلك الأخرى ، والقلوب تتعاقد كالانعام والشرق والغرب قلب متابع النغمات ، فالانسان نعمة في العالم ، والعالم نعمة الله ونشيد فرحه الازلي .

١) طاغور وغاندي بين الشرق والغرب

طاغور هو الذكاء الرحيب المنفتح على كل ثقافات العالم ، وغاندي هو النفس المتشقة الحائرة . وكل منها اعجب بالآخر وقدراه الاحترام والمحبة ، فقال طاغور في غاندي اجل ما قيل فيه : « لقد ظهر المهاتما غاندي ، واقفاً على اكواخ الالوف من المحرومين ، يرتدي ثياباً كسايهم ويكلمهم بلهجتهم . . . وهكذا فان اسم المهاتما (النفس الكبيرة) الذي اعطي له هو اسمه الحقيقي . من غيره شعر بان ابنا الهند كلهم هم لحمه ودمه . . . فلنعظم المهاتما الذي فيه تجسنت قوه الحقيقة . . . »

وغاندي من جهته كان يكنّ التقدير لطاغور ويستودعه اولاده حين يذهب الى انكلترا ، ويجلو له مراراً ان يقضي في (Sbanti Niketan) اياماً عديدة فيستقر هناك كانه في منزله الخاص .

وكلاهما ابنضا - اذا صحح انها استطاعا البغض - ظلمات الغرب وديكتاتوريته المتقرة ومخائمه الحديدية التي تستعبد الانسان .

ولكن التفاوت الفكري بين الرجلين العظيمين بدأ بعد رجوع طاغور من اوروبا فأحس بالحى تضروب في الرؤوس إثر حرايمه بنجاب واعلان «اللاتزامن» مع الإنكليز ، وكان غاندي قائد حركة «اللاتزامن» و«الأعنف» . اما

(١) لم يؤمن طاغور بكلام دويدارد كيلنج الذي صار مثلاً :

« East is east, And west is west
 And shall both never be at rest. »

طاعور فكان يرفض كلمة « لا » ، وهو القلب الواسع الذي يرحب بكل
السهل من حيث أتت . الموضوع العزيز على قلبه ، الذي هو اساس فلسفته ،
هو موضوع الوحدة مع الطبيعة والحلائق ، والوحدة ليس فيها « لا » ورفض
وانكماش :

« الوحدة هي اتصال كل شيء بكل شيء . فتن تُدرك عن طريق السلب والرفض . »
لقد قال مرة للذاهين من بلاده الى اوربة : « עודوا الينا حاملين كل قوى
الترب الروحية . ان نفسنا عي بحاجة الى نفهم ، كما ان نفهم بحاجة الى
نفسنا . فالانانية واحدة في جوهرها : وما الشرق والغرب الا خفقات
متتابعة من قاب واحد . كل خفقة تتقدم الاخرى وتلبها . »

وان « اللائخامن » الفاندي كان يجرح ذكاه في الصميم وهو المرسل
الذي يدور في القارات يدعو الى تأييد جامعة عالمية تهتم فيها الحدود العرقية،
فيتفاهم الناس وتضحل المنازعات المورثة الحراب . ولقد ادرك خطورة موقفه
امام الغرب حين قال وهو في اوربة :

« ايه مهزلة من الغدر تدعوني الى ان ابشر هنا بالئضامن بين الشرق والغرب ، بينما
يُبشر باللائضامن هناك . »

قد كان طاغور يدعو الى نبضة كهري تشترك فيها كل الامم في العالم فيقول :
« ان المضة البرم هي مضة عالية . فلن ينجو شب دون شب . فاما المخلص مآ
، اما الهلاك مآ . »

وحينا علم ، وهو في انكلترة ، ان الطلاب المنود اضربوا عن كرس
الانكلتزية كتب الى مدير « سانتي نيكااتان » وكيله ، يلقي المسؤولية على
الحركة اللائضامنية التي يترعها غاندي :

« ان المحاولة الحاضرة لاجاد عقلا عن عقل الغرب ، ان هي الا محاولة اتحار روعي . »

اما غاندي ، رجل الواقع المرجع ، فكان يجب يهدو . انه قبل تعاون
الامم كلها ، يجب التعاون الداخلي بين افراد الامة الواحدة ، « وقبل الزواعة
يجب تنقية الاوض واستئصال الشر منها . »

يتكلم طاغور عن التريث والاحتمال ، والتطلع الى المستقبل الجميل الذي

يسمى اليه شباب الهند في يقطبتهم القومية لخدمة العالم ، فيجيبه غاندي :
 « عندما تشتعل النار في البيت ، غنى الكل ان يملوا الماء لاهوائها . هذا هو الواجب
 اليوم ، اما الند ، فانه يهتم له . . . ان الشعب الهندي يموت . . . فكل الهند ان تعلم
 كيف تحيا لاجل العالم قبل ان تعلم كيف تموت لاجله . »

هذا هو شبح الواقع اليومي الشنيع يقف بوجه طاغور ، رجل الفن فيفقد
 عليه جمال احلامه الشاردة الى عالم الامل المعزي . اذ ذاك تكفيه صرخة
 اخرى رائعة فيها فثورة وغبطة وفيها شيء من الاخفاق : « ان ايجاد الانسانية
 هي ايجادى . . . ولن يدرك الانسان شخصيته اللامتناهية الا بتوافق عظيم
 بين شعوب الارض كلها . » بعد هذا انتحى طاغور زاوية ابدته عن السياسة
 المباشرة ، وكان عنده من الاتضاع والمحبة الشيء الكافي ليترك لغاندي قيادة
 النهضة ، فدعى « الوطني الكتيب . »

وتلع الرجلان العظيمان وجهتهما في الحياة ، كل في طريقه فكان صوت
 طاغور يتخالف في عالم السياسة حتى سنة ١٩٤١ فينتهي الى الابد ليرتفع اعلى
 واشمل في قرارة نفس الانسانية ؛ وكان صوت غاندي يدعو الى « اللاتزامن »
 مع الاخر و « اللاعنف » او التسامح معه بالوقت ذاته ، الى ان انطوى ضحية
 الانسان الذي جرد حياته لخدمته في العالم فرفته الانسانية مثالا اعلى للحياة .
 غاندي و طاغور قلبان محبان ما ابنا ابدا ، وان غاندي ذاته رغم
 الاضطهادات التي لحقت ببلاده قال يوماً : « ان « اللاتزامن » الذي ادعو اليه
 ليس هو عداء للغرب بل لتلك الثقافة المادية التي تستشر الضيف . . . واني
 اترك ساحة الجهاد اذا شعرت بان هناك بنضاً للانكليز : فلبنض كل ما
 هو شيطاني ولنحجب الشيطان . »

هي هذه الناحية الخفية الواسعة من نفس غاندي يجتمع فيها بطاغور الواسع
 القلب ، حين يهتف :

« انا لا اريد ان احصر بيتي من جهاته الاربع ولا ان تومد نوافذه . اريد ان تسري
 انفس ثقافات كل الامم بحرية في مكبي ولكني لن ادع تيارها يجرني . والدين الذي
 اعتنقه لا اريده سجناً ، بل امهد فيه مفرأ لادنى خلائق الله . فانا لا اغلقه الا بوجه حماقة
 الكبرياء العرقية والدينية واللونية الصنيفة . »

تحت كلمات كبهذه يجتمع قلب الرجلين العظييين . ولكن الغرب لم يفهم هذه الناحية المقدسة العابدة الكبيرة من نفس غاندي ، بل هاله ما في تلك النفس من تجردٍ وقنوتٍ وقهر ذاتٍ وحرمان قوتٍ على الجسد الناحل .

والغرب احب طاغور اكثر لانه شعر بشيء فيه من « ليونارده فيبي » و«غوته » . اذ ان طاغور قد احب المعرفة والعلوم ولم يستصده علم او معرفة بل وفرف عليها بمجناحيه الطليقين . وهكذا اجتمعت فيه العبيريتان : إلهام الشرق وحدهم الصادق ، وتواكل الغرب على سلطان المعرفة وقدرتها النهائية الغلابة .

في سأم حياة الهند الصاعدة رجلان : غاندي في اسفله ياشي الناس ويواكلهم ويعايشهم ليقنعهم بعدم الأركان الى الخمول ولا يفهمهم معه ، وطاغور في اعلى السلم يدلهم على الهدف الذي يجب ان يسعوا اليه . غاندي وطاغور يدان تتعاونان في خدمة الانسان ولا تفضل الواحدة الاخرى .

اذا كان عالم اليوم لم يشاهد رجلاً اكثر تضحية واعنى محبة وتجرداً من غاندي ، فانه لم يشاهد ايضاً رجلاً ارحب نفساً واشمل ذكاء من طاغور . أن يكون في النصف الاول من القرن العشرين مثل غاندي وطاغور ، فذلك ما نيجملنا نؤمن بان النصف الثاني من جيلنا سيبلغ موطن السلام ولن يهلك البغض ابناؤه ، ذلك البغض المورث الثلاثي والاضمحلال ! ...

==

سرّ الفرح

في هذا العالم حيث تتلاقى الانانيات فتتلاطم وتتنافر الارادات ويتضعضع اساس الايمان بالحقائق السامية ، تتصادم كلمات الشاعر صرخةً ضد حقيقة لا تستقر بغير المادة ، ومعرفة لا ترى لها مصدرًا غير عقلٍ باردٍ جاف . اما الشاعر فهو ابن الملاحظات الازلية ، يحس بان عقله شعله من اضطرام المعرفة الاولى المبدعة لكل نظاماً وحدوداً ، ويحس بان حقيقته هي في تلك العلاقة التي تمتد كالجرير الغير المنظور بين الارض والسماء ، والتي لا يمكنه رفضها . فاذا ما تطلّع الشاعر الى الارض ورأى جمالها وقبحها ، ورأى اوديتها وقبحها ، ورأى

آلامها وافراحها المتجسدة ، لا يستطيع ان يظل جامداً ؛ فان هذا الجمال وهذا
التبحر ، وهذه الآلام والافراح ، وهذه الاودية والقمم ، هي كلها صورته ،
صورته في ظروفها المتنوعة ظاهراً ، واكبتها الموحدة بالنظام المستمر الذي
شاهه الله .

وكلما جلس الشاعر الى الطبيعة ، على تنوره سؤالان : يستفسرها عن
نفسه ، وعن سر خضوعها لله . فبر دأماً يقف على بابها مستعظياً منتظراً :
« ألم تسع وقع اقدامه المرءاء ؟ انه آت آت آت ابدأ !
في كل ثانيه وزمن ، في كل صباح وليل ،
في ليالي ثورة العاصفة السوداء ، على مركبة من النوم ،
هو آت آت آت ابدأ !
تضبط خطواته على قلبي فتدافع في قلبي النوم ،
وتلامسني قدامه ، فاطير من فرح ونشوة ! »

هو ذلك الفرحة الكبير يحس به الشاعر في تعرفه الى حقيقة ذاته المتصلة
بالله . وقد ينقص ذلك الفرحة عليه كل رفض وجور وبخل :
« ان في قاي حرة . فهو ينوء بثقل العبرات التي لم يقدمها لك ...
« وبكيت بكاء مرّاً وقلت في نفسي : ليت قلبي اعطاك كل ما له ! »

ولكنها قدرات حزين عابر في نفس الشاعر ، اذ انه يعود حالاً الى
الاحساس بذلك الوصال الحاضر ، الذي هو صورة الوصال الابدي المزمع ،
وتعود النبطة الاولى مهيبة تلك الالحان الموزونة المتأخية ، مترغمة بالاناشيد
الجبارة المكبوتة في احشاء الدهور منذ ولدت الانسانية الى ان تقفى في جوف
الارض ، اهرا . الحياة الصامتة الخفقات التي لن تتلاشي الى ابد الآباد !
كذا يبقى الانسان لان جوعه الى اللانهاية لا نهاية له الا بالاستقرار في
حضن الله .

وهذا هو سر فرحنا الجبار ! ...



غُيوم و امواج

- لطاغور -

اماه ، هزلا . الذين يعيشون فوق السحب نادوني قائلين : « اننا ناعب من الصباح حتى المساء . اننا نلعب مع النجم الذهبي ، والقمر الفضي . »
سألتهم : « ولكن كيف استطع ان اصعد اليكم ؟ »
فاجابوني : « تماأل الى حافة الارض ، و امدذ يديك الى السماء . وسوف تحمل عالياً الى السحب . »

قلت : « ان امي تتظرنني في المنزل فكيف استطع ان اتركها واصعد اليكم ؟ » عندئذ ضحكوا و سبحوا في الفضاء البعيد ...
ولكنني اعرف لعبة ابداع و اجمل من العاليم يا اماه ا
ساكون السحب و تكونين انتِ القمر .
سوف اغطي وجهك بيدي و ستكون السماء الزرقاء قمة متونا ...
ش .

وهزلا . الذين يعيشون في الامواج نادوني :
« نحن نغني من الصباح حتى المساء . نحن ناسفر بعيداً ولا نعلم الى اين نسير . »
سألتهم : « ولكن كيف استطع ان انضم اليكم ؟ »
اجابوني : « تماأل الى حافة الشاطئ ، و تف معسوب العينين ، فتجمل عند ذلك على متن الامواج . »

قلت لهم : « ان امي تتظرنني دائماً في المساء . فكيف اتركها وامضي . »
مكم ؟ « عندئذ ضحكوا و رقصوا و مضوا بعيداً .
ولكنني اعرف لعبة اروع من العاليم يا اماه ا
ساكون الامواج و تكونين انتِ الشاطئ .
فامضي و ارحل رحلات بعيدة ، ثم اعود فانفجر ضاحكاً بين احضانك
ولن يعرف انسان في العالم اين نحن ا ... »

زهرة « الموائس »

ماتت زهور « اللوتس » لقسوة الصقيع ولم يبقَ غيد زهرة وحيدة في حديقة
« سورداس » البستاني .

لقد ذهب الى القصر لبيع زهرته الوحيدة وهناك رأى تاجراً مثرياً اعجب بها .
« اشترى زهرتك لاقدمها الى الاله بوذا »

اما « سورداس » فطلب قطعة من الذهب ثمناً لها .

وبينا التاجر يتردد في دفع الثمن ، خرج الملك من قصره في طريقه الى
المعبد ، ولمح الزهرة البيضاء . في يد البستاني فدهش وقال : « اشترىها من اجل
بوذا . فكلمتها ؟ »

اجاب البستاني : « لقد بيعت يا مولاي بقطعة من الذهب . »

فقال الملك : « اني ادفع عشر قطع ذهبية ثمناً لها . »

وقال التاجر : « انا ادفع عشرين قطعة . »

واشتدت المنافسة بين الملك والتاجر من اجل الحصول على الزهرة ، وتساعد
الثن .

أصغى البستاني ثم قال في نفسه : « انهم يطلبون الزهرة من اجل الاله
بوذا . فاي ثمن نقيس احجّل عليه من الاله نفسه مقابلها ؟ »

« عفواً ايها البادة ، لن ابيعها . » وانبسطت يدها في توسل ورجاء . ثم
اسرع الى حيث يجلس بوذا في سلام يظلمه وشاح الالوهة .

رآه البستاني على هذه الصورة ، فوقف مبهوتاً لا يساعه لسانه ولا يستطيع
حراكاً . ثم التى بنفسه على اقدام مولاه وقدم اليه الزهرة .

انبسطت اسارير بوذا وقال : « ما امثيتك ؟ »

فاجابه البستاني في لهفة وحرارة :

« لا شي . سوى قبضة من تراب قدميك ا »

السهابة

لأن وقت الرحيل يا اماء وها انا ذاهب ا
وعندما تمدين يدك في شحوب الليل والفجر يبدد ظلمته تلمسين طفلك
في سريره ، سأقول لك :

«الطفل ليس هنا...» انا ذاهب يا اماء ا

ساصير حبة نسيم ناعمة اعانتك وادلك ، وسأكون سقطة الماء عندما
تستحين واقبلك مرات ومرات .

وفي الليل العاصف المطر عندما يتساقط المطر على الورقات ، تستمعين في
سريرك هماتي وستترج ضحكاتي بالبرق الخاطف المتلألئ داخل حجرتك
المفتوحة النواقد .

واذا اضطجعت يغطي تفكرين في طفلك الى ساعة متأخرة من الليل ،
فسوف اغني لك من النجوم قائلاً :

«نامي يا اماء نامي ا...»

وانسل الى سريرك في اشعة القمر الشاردة واغفر على صدرك يا امي
وانت غارقة في عالم الكرى .

وساصبح حلماً اترلق بين جفنيك ، وعندما تستيقظين ، وتنظرين حولك
مذعورة ، سوف امرق كومة خائفة واغيب تحت سدول الظلام.

وعندما يأتي الاطفال المجاورون في عيد «يوجا» الكبير ، ويلعبون حول
مترلتنا ، عندئذ ساذرب في نغمات المزامير وابيض طول النهار في قلبك المحسوم .

وعندما تأتي عمتي حاملة هدايا اليد وتسالك : « اين طفلنا يا اختاه ؟ »
ستجيبها يا امي بمذوبة ناعمة :

« انه في سواد العين

انه في دمائي

انه في روحي ا... »